جحا وهارون الرشيد

حكايات من الشرق





حكايات من الشرق
جحا وهارون الرشيد
مكتبة سمير

حكايات من الشرق





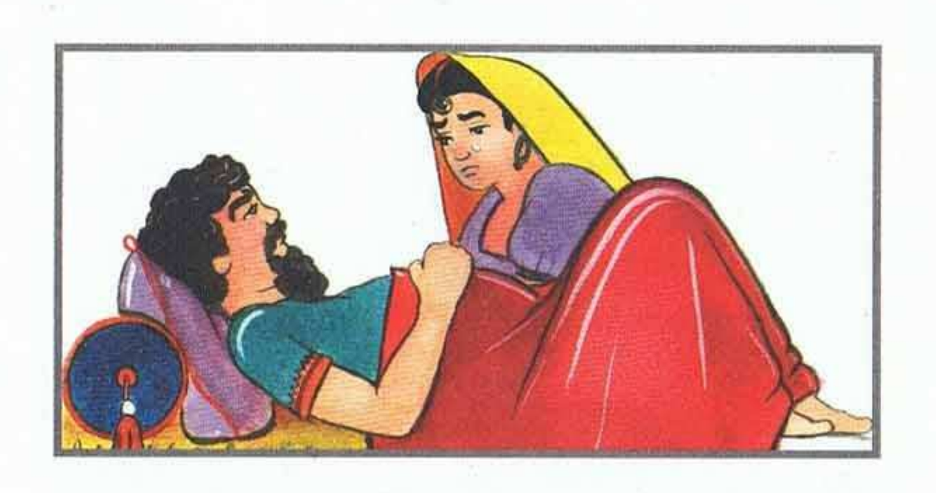
سلسلة «حكاياتٌ منَ الشَّرق»

جُحا وَهارون الرَّشيد



إعداد الدكتور جوزيف أبو نجم





١

مَرِضَ هارون الرَّشيدُ ذاتَ يَوْمٍ مَرَضًا شَديدًا ٱضْطُرَّ مَعَهُ إلى مُلازَمَةِ الْفِراشِ أَسابيعَ طَويلَةً. وَبما أَنَّهُ كانَ رَجُلًا نَشِيطًا يُحِبُّ الْحَياةَ، سُرْعانَ ما ٱسْتَوْلى عَلَيْهِ الضَّجَرُ فَفَقَدَ روحَ الْمَرَحِ. وَتَدَهْوَرَتْ صِحَّتُهُ إلى حَدٍّ خافَ مَعَهُ أَهْلُ الْقَصْرِ عَلى حَياةِ الْخَليفَةِ. وَكانَ الأَكْثَرَ قَلَقًا عَلى صِحَّةِ الْخَليفَةِ شَمْسُ النَّهارِ، زَوْجَتُهُ الَّتي يُحِبُّها حُبًّا شَديدًا، وَالَّتي راحَتْ تُمْضي النَّهارَ، مِنْ أَوَّلِهِ إلى آخِرِهِ، بِالْقُرْبِ مِنْهُ، لا تُفارِقُهُ لَحْظَةً، تَبْكي مِنْ شِدَّةِ قَلَقِها عَلَيْهِ.

ذاتَ يَوْمٍ، بَعْدَ أَنْ فَحَصَ الطَّبيبُ الْخَليفَةَ فَحْصًا دَقيقًا، قالَ لَهُ:

– مَوْلايَ، عِنْدي نَصيحَةٌ لَكَ. إذا أَرَدْتَ الشِّفاءَ فَعَلَيْكَ أَنْ تَطْرُدَ الضَّجَرَ مِنْ حَياتِكَ، فإنَّهُ سَبَبُ كُلِّ أَوْجاعِكَ.

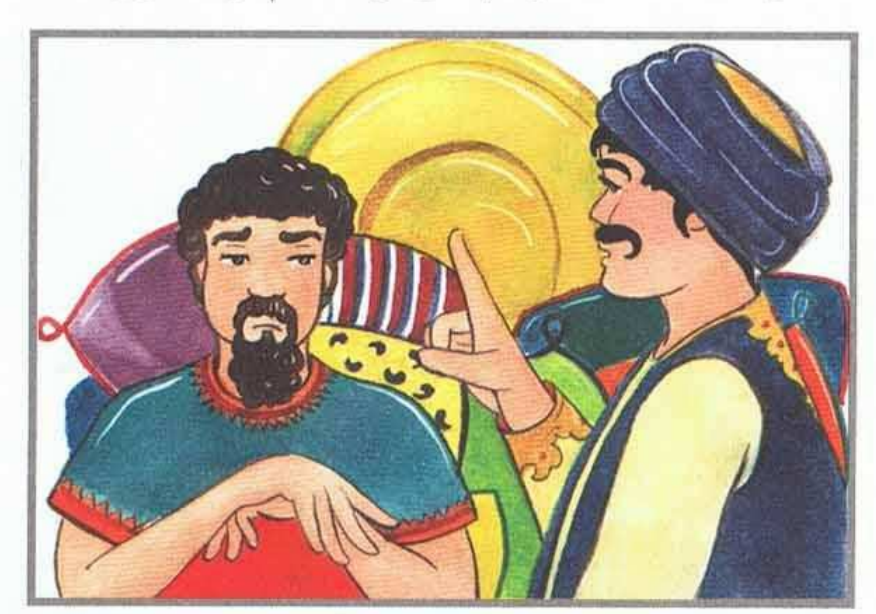
فَأَجابَ الْخَليفَةُ:

– وَما عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ لِذٰلِكَ؟

– عَلَيْكَ أَنْ تَتَسَلّى طَوالَ الْوَقْتِ، وَبالأَخَصِّ أَنْ تَضْحَكَ كَثيرًا. إنَّهُ أَفْضَلُ عِلاجٍ لَكَ لِتَشْفى.

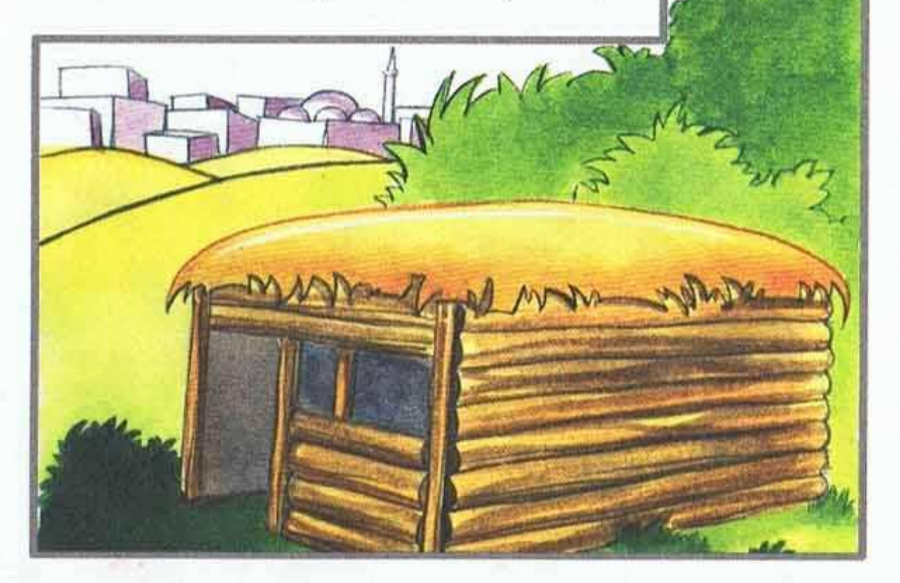
في النَّهارِ نَفْسِهِ، اسْتَدْعى الْخَليفَةُ كَبيرَ وُزَرائِهِ، جَعْفَر، وَكَرَّرَ لَهُ ما قالَ الطَّبيبُ. فَأَجابَهُ جَعْفَر قائِلًا:

– إنَّ طَبيبَكَ، يا مَوْلايَ، رَجُلٌ حَكيمٌ جِدًّا، وَأَرى أَنْ



تَتْبَعَ نَصائِحَهُ تَمامًا كَما أَشارَ عَلَيْكَ. إنَّ مَمْلَكَتَكَ، يا مَوْلايَ، تَعِجُّ بِالشُّعَراءِ وَالأُدَباءِ الَّذينَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُسَلّوكَ بِأَشْعارِهِمْ وَحِكاياتِهِمْ وَنَوادِرِهِمْ. اتَّكِلْ عَلَيَّ، وَسَأَسْتَدْعي أَشْهَرَ الأُدَباءِ لِيَحْضُروا أَمامَكَ.

وَلِلْحالِ، أَرْسَلَ كَبيرُ الْوُزَراءِ الرُّسُلَ إلى أَشْهَرِ شُعَراءِ الْمَمْلَكَةِ وَأُدَبائِها، وَدَعاهُمْ إلى الْقَصْرِ. فَكانَ ديوانُ الْخَليفَةِ، طَوالَ عِدَّةِ أَيّامٍ، يَعِجُّ بِالأَشْخاصِ الْمُثَقَّفينَ الَّذينَ جاؤوا مِنْ كُلِّ أَنْحاءِ الْبِلادِ. وَراحَ بَعْضُهُمْ يُلْقي أَمامَهُ الأَشْعارَ، يَمْدَحُ فيها عَظَمَتَهُ وَقُوَّتَهُ، وَبَعْضُهُمُ الآخَرُ يُخْبِرُهُ الأَخْبارَ الْعَجيبَةَ.



إلّا أَنَّ الْأَيّامَ كانَتْ تَمُرُّ مِنْ دونِ أَنْ تَتَحَسَّنَ صِحَّةُ الْخَليفَةِ. فَٱسْتَدْعى هارون الرَّشيدُ كَبيرَ وُزَرائِهِ، مَرَّةً جديدَةً، وَقالَ لَهُ:

– يا جَعْفَر، إنَّ الشُّعَراءَ وَالْأُدَباءَ الَّذينَ دَعَوْتَهُمْ إلى الْقَصْرِ هُمْ أَهْلُ مَعْرِفَةٍ وَعِلْمٍ. وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُبْعِدَ عَنّي السَّأَمَ وَالْمَلَلَ. أَلا تَعْرِفُ أَحَدًا يَقْدِرُ على إضْحاكي؟

فَأَجابَ جَعْفَر:

– مَوْلايَ، لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ بِبَغْدادَ رَجُلًا مَشْهورًا بِمَزَحاتِهِ وَنِكاتِهِ وَمَقالِبِهِ الَّتي لا يُوَفِّرُ أَحَدًا مِنْها.

– وَما ٱسْمُ هٰذا الرَّجُلِ؟

– اِسْمُهُ جُحا، يا مَوْلايَ. وَهُوَ يَعيشُ غَيْرَ بَعيدٍ عَنِ الْقَصْرِ في كوخٍ خَشَبِيٍّ قَديمٍ، يَقَعُ بِالْقُرْبِ مِنْ مَدْخَلِ الْمَدينَةِ الشَّرْقِيِّ.

فَصَرَخَ الْخَليفَةُ:

– وَماذا تَنْتَظِرُ لِتَدْعُوَهُ إلى الْحُضورِ؟

فَأَجابَ جَعْفَر:

– وَلٰكِنْ.. مَوْلايَ.. إنَّ جُحا رَجُلٌ فَقيرٌ، ثِيابُهُ مُهَلْهَلَةٌ وَمُتَّسِخَةٌ، بِحَيْثُ إنّي أَسْتَحي أَنْ أَجْعَلَهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ، وَأَنْ

يَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ.

– وَلٰكِنَّها مُشْكِلَةٌ يَسْهُلُ حَلُّها: مُرْهُ أَنْ يَسْتَحِمَّ جَيِّدًا، ثُمَّ أَلْبِسْهُ ثِيابًا جَديدَةً. وَهٰكَذا، يَسْتَطيعُ الْحُضورَ أَمامي نَظيفًا!

فَأَسْرَعَ كَبيرُ الْوُزَراءِ وَنَفَّذَ ما طَلَبَهُ الْخَليفَةُ مِنْهُ. وَلَمْ تَمْضِ ساعاتٌ حَتّى كانَ جُحا واقِفًا في ديوانِ الْقَصْرِ أَمامَ هارون الرَّشيدِ، الَّذي قالَ لَهُ:

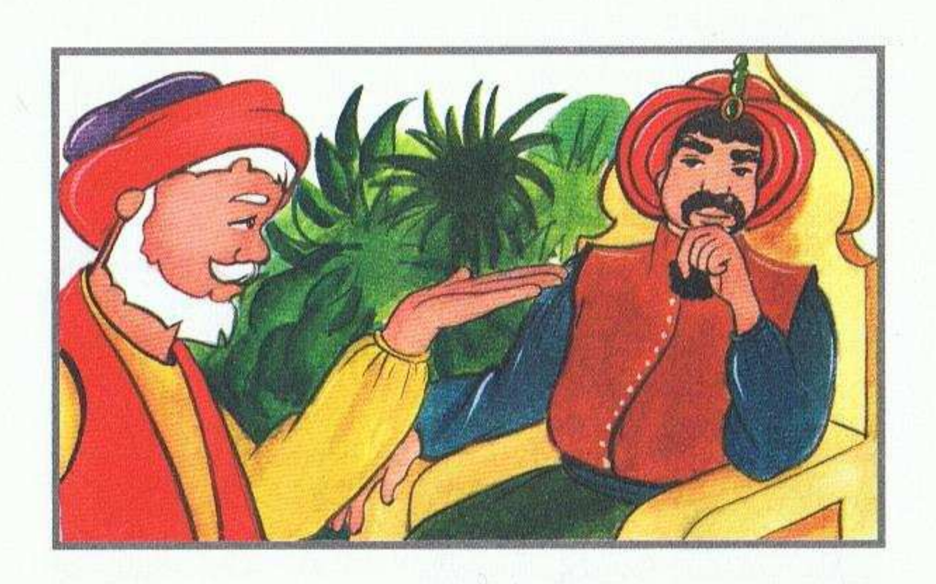
– يا جُحا.. قيلَ لي إنَّكَ رَجُلٌ طَيِّبٌ، تُحِبُّ الْمِزاحَ وَالْمَقالِبَ الطَّريفَةَ الَّتي تَبْرَعُ فيها. وَلَقَدِ ٱسْتَدْعَيْتُكَ لِتَقُصَّ عَلَيَّ بَعْضًا مِنْ نِكاتِكَ وَمَقالِبِكَ...

اِرْتاحَ جُحا لَدى سَماعِ الْخَليفَةِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ لِماذا أُحْضِرَ إلى الْقَصْرِ. وَلَمّا ٱطْمَأَنَّ، راحَ يَتَكَلَّمُ وَيَتَكَلَّمُ... يَقُصُّ عَلى هارون الرَّشيدِ أَشْهَرَ الْمَقالِبِ الَّتي قامَ بِها. وَبَيْنَما هُوَ يَرْوي أَخْبارَهُ، كانَ الْخَليفَةُ يَضْحَكُ وَيَتَلَوّى مِنَ الضَّحِكِ. وَكُلَّما أَنْهى جُحا قِصَّةً، كانَ الْخَليفَةُ يَأْمُرُهُ أَنْ يُعيدَها. وَفي كُلِّ مَرَّةٍ، يُقَهْقِهُ الْخَليفَةُ وَيَقَعُ عَلى ظَهْرِهِ مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ. أَخيرًا، صاحَ الْخَليفَةُ بِجُحا:

– يا جُحا، أَرْجوكَ، تَوَقَّفْ... سَوْفَ تَقْتُلُني مِنْ كَثْرَةِ الضَّحِكِ!

وَصارَ الْخَليفَةُ يَأْمُرُ بِإحْضارِ جُحا كُلَّ يَوْمٍ إلى قَصْرِهِ، فَيَقُصُّ عَلَيْهِ النَّوادِرَ وَالْمَقالِبَ الطَّريفَةَ. بَعْدَ أَسابيعَ، اسْتَعادَ هارون الرَّشيدُ صِحَّتَهُ وَعافِيَتَهُ، وَقَرَّرَ مُكافَأَةَ جُحا. وَهٰكَذا، تَمَّ تَعْيينُ جُحا نَديمًا خاصًّا لِلْخَليفَةِ، وَمُضْحِكَ الْقَصْرِ الرَّسْمِيَّ.





٢

في أَحَدِ الْأَيّامِ، سَأَلَ الْخليفَةُ جُحا:

- قُلْ لي، يا جُحا، هَلْ بَقِيَ في بَغْداد مَنْ لَمْ يَقَعْ ضَحِيَّةَ مَقالِبِكَ؟!

فَأَجابَهُ جُحا:

- نَعَمْ، يا مَوْلايَ؛ بَقِيَ أَنْتَ يا مَوْلايَ!

لَمْ يَكُنِ الْخليفَةُ يَتَوَقَّعُ هٰذا الْجَوابَ؛ فَنَظَرَ إلى جُحا مِنْ طَرَفِ عَيْنَيْهِ، وَسَأَلَهُ:

- وَهَلْ تَتَجَرَّأُ، يَوْمًا، على أَنْ تُوْقِعَني ضَحِيَّةَ أَحَدِ مَقالِبِكَ؟

فَأَجابَ جُحا:

- قد أَقومُ بِذٰلِكَ إذا وَعَدْتَني بِأَلّا تَنْتَقِمَ مِنّي.

فَعَبَسَ الْخليفَةُ وَفَكَّرَ قليلًا، ثُمَّ قالَ:

- إذا أَضْحَكَني الْمَقْلَبُ، فَإِنَّني أَعِدُكَ بِأَنَّهُ لَيس عَلَيْكَ أَنْ تَخْشى غَضَبي أَوْ نَقْمَتي.

وَحَصَلَ، مَرَّةً، أَنَّ جُحا أَعْوَزَهُ الْمالُ، فَطَلَبَ مِنَ الْخَليفَةِ أَنْ يُعْطِيَهُ بَعْضًا مِنْهُ. لٰكِنَّ الْخَليفَةَ لَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا. بَلْ رَفَسَهُ عَلى قَفاهُ وَأَرْسَلَهُ فارِغَ الْيَدَيْنِ. ذٰلِكَ أَنَّ هارون الرَّشيدِ كانَ،



ذٰلِكَ الْيَوْمَ، مُسْتاءً مِنْ أَمْرٍ شَغَلَ بالَهُ.

لٰكِنَّ جُحا لَمْ يَتَقَبَّلْ أَنْ يَرْفُسَهُ الْخَليفَةُ، فَغادَرَ الْقَصْرَ مُسْرِعًا. وَعادَ إلى كوخِهِ يَغْلي مِنَ الْغَضَبِ، فَأَخْبَرَ زَوْجَتَهُ ما حَصَلَ مَعَهُ؛ قالَ لَها:

- إنَّ هٰذِهِ الرَّفْسَةَ لَنْ تَمُرَّ عَلى سَلامٍ. سَأَنْتَقِمُ مِنَ الْخَليفَةِ.

فَصاحَتْ زَوْجَتُهُ فاطِمَة قائِلَةً:

- أَيُّها الْمِسْكينُ! تُريدُ أَنْ تَنْتَقِمَ مِنَ الْخَليفَةِ، سَيِّدِنا؟ إنَّكَ حَتْمًا لَمَجْنونٌ لِتُفَكِّرَ في أَمْرٍ مُماثِلٍ.

- يَجِبُ أَنْ يَدْفَعَ ثَمَنَ الرَّفْسَةِ. وَأَنْتِ، يا فاطِمَة، سَوْفَ تُساعِدينَني عَلى تَنْفيذِ انْتِقامي.

فَاضْطَرَبَتْ فاطِمَة، وَقالَتْ:

- أَنا؟ وَكَيْفَ أُساعِدُكَ أَنا؟

- سَوْفَ تَذْهَبينَ إلى الْقَصْرِ، وَتَرْتَمينَ باكِيَةً بَيْنَ يَدَيْ شَمْسِ النَّهارِ، زَوْجَةِ الْخَليفَةِ، وَتَقولينَ لَها إنَّني قَدْ مُتُّ وَإِنَّكِ بِحاجَةٍ إلى مِئَةِ دينارٍ مِنْ أَجْلِ مَصاريفِ الدَّفْنِ.

- مِئَةُ دينارٍ! هَلْ أَنْتَ مَجْنونٌ؟ هَلْ تَظُنُّ أَنَّها سَتُعْطيني مِئَةَ دينارٍ؟!

فَأَجابَ جُحا:

- إِنَّ شَمْسَ النَّهارِ ٱمْرَأَةٌ كَريمَةٌ وَطَيِّبَةُ الْقَلْبِ. أَنا مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّها لَنْ تَرْفُضَ طَلَبَ أَرْمَلَةٍ مِسْكينَةٍ تَبْكي زَوْجَها.

- وَلٰكِنْ، ماذا يَحُلُّ بي لاحِقًا، عِنْدَما تَعْرِفُ أَنَّني كَذَبْتُ عَلَيْها؟

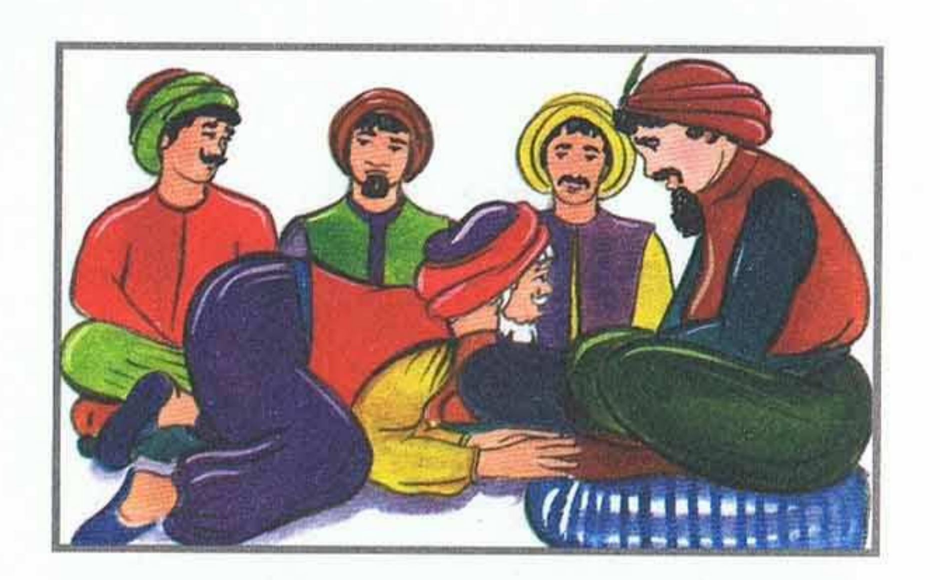
- لا تَهْتَمّي بِما سَوْفَ يَحْصُلُ لاحِقًا، بَلِ ٱفْعَلي ما أَطْلُبُهُ مِنْكِ تَمامًا.

فَوَضَعَتْ فاطِمَةُ الْحِجابَ الْأَسْوَدَ عَلى رَأْسِها، وَخَرَجَتْ مُسْرِعَةً نَحْوَ الْقَصْرِ. وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ عادَتْ، بَعْدَ ساعَةٍ، تَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْها صُرَّةً كَبيرَةً مِنَ الدَّنانيرِ. فَٱسْتَقْبَلَها جُحا فَرِحًا، وَقالَ لَها:

- إِنَّني مَسْرورٌ جِدًّا مِنْكِ! وَالْآنَ جاءَ دَوْري. اِنْتَظِريني هُنا، وَلا تَذْهَبي قَبْلَ أَنْ أَعودَ.

وَخَرَجَ بِدَوْرِهِ مُسْرِعًا.





٣

عِنْدَما وَصَلَ جُحا إِلى الْقَصْرِ، كانَ الْخَليفَةُ مُجْتَمِعًا مَعَ مُسْتَشاريهِ، يَبْحَثُ مَعَهُمْ شُؤونَ الْبِلادِ. فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ جُحا دونَ ٱسْتِئْذانٍ، وَقَبَّلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيِ الْخَليفَةِ، وَقالَ لَهُ وَهُوَ يَتَظاهَرُ بِالْبُكاءِ:

- مَوْلايَ! مَوْلايَ! إِنَّها مُصيبَةٌ حَلَّتْ بي؛ فَعِنْدَما عُدْتُ إِلى الْكوخِ الْيَوْمَ، وَجَدْتُ زَوْجَتي الْحَبيبَةَ قَدْ ماتَتْ...

فَصاحَ الْخَليفَةُ:

- ماذا؟ زَوْجَتُكَ فاطِمَةُ ماتَتْ؟ يا إِلٰهي! وَماذا حَصَلَ لَها كَيْ تَموتَ؟

فَأَجابَ جُحا:

– عِنْدَما خَرَجْتُ هٰذا الصَّباحَ، كانَ رَأْسُها يُؤْلِمُها أَلَمًا شَديدًا. لا بُدَّ أَنَّ ذٰلِكَ أَدّى إلى حُدوثِ نَزيفٍ في رَأْسِها.

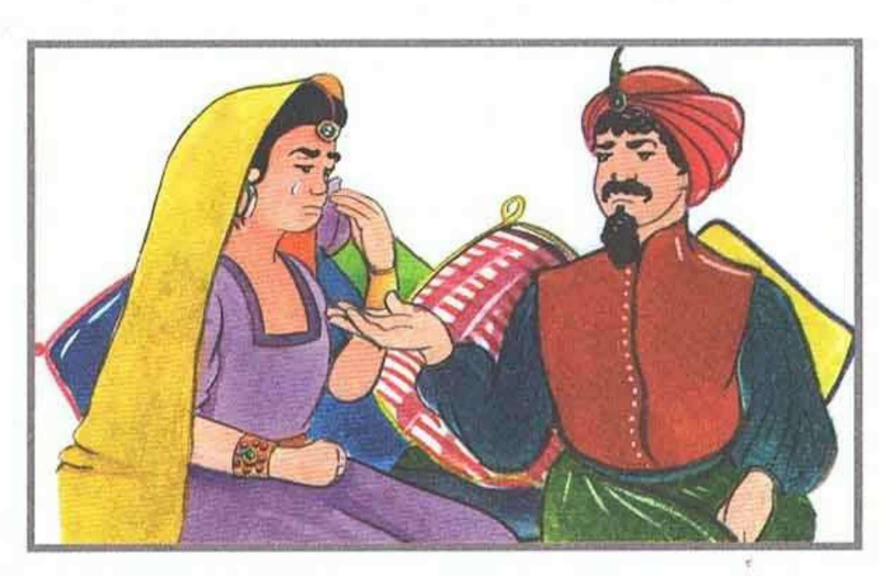
– لِيَرْحَمْها اللهُ! لَقَدْ كانَتِ ٱمْرَأَةً طَيِّبَةً، كانَ يُمْكِنُ أَنْ تَعيشَ طَويلًا، وَلٰكِنَّ اللهَ قَدَّرَ لَها ذٰلِكَ... فَلْيَرْحَمْها اللهُ!

وَسَكَتَ الْخَليفَةُ بُرْهَةً، ثُمَّ قالَ:

– قُلْ لي يا جُحا، ماذا يُمْكِنُني أَنْ أَفْعَلَ لِأُخَفِّفَ عَنْكَ الْمُصيبَةَ؟

فَأَسْرَعَ جُحا يَقولُ:

– مَوْلايَ، إنَّني بِحاجَةٍ إلى مِئَةِ دينارٍ أَدْفَعُ بِها مَصاريفَ الدَّفْنِ.





فَٱلْتَفَتَ هارون الرَّشيدُ إلى الْمَسْؤولِ عَنِ الْأَمْوالِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَ مِئَةَ دينارٍ لِجُحا. فَأَخَذَ هٰذا الْأَخيرُ الْمالَ، وَعادَ مُسْرِعًا إلى كوخِهِ. لَمّا أَنْهى الْخَليفَةُ ٱجْتِماعَهُ مَعَ مُسْتَشاريهِ، أَسْرَعَ إلى زَوْجَتِهِ شَمْسِ النَّهارِ لِيُخْبِرَها النَّبَأَ السَّيِّئَ. فَوَجَدَها وَحيدَةً في غُرْفَتِها تَبْكي. قالَ لَها:

– يا عَزيزَتي، ما بِكِ؟ أَراكِ تَبْكينَ!

– أَجَلْ، يا مَوْلايَ، فَقَدْ وَصَلَني نَبَأٌ سَيِّءٌ مُنْذُ بَعْضِ الْوَقْتِ. إنَّ جُحا الطَّيِّبَ اللَّطيفَ قَدْ ماتَ هٰذا الصَّباحَ...

عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسانَ الْخَليفَةِ، فَجَلَسَ قُرْبَ زَوْجَتِهِ مُسْتَغْرِبًا، وَقالَ:

- لا شَكَّ في أَنَّكِ مُخْطِئَةٌ. إنَّ فاطِمَة، زَوْجَةَ جُحا، هِيَ الَّتي ماتَتْ، وَقَدْ أَخْبَرَني جُحا بِذٰلِكَ مُنْذُ لَحَظاتٍ. وَتأْكيدًا لِلْأَمْرِ، لَقَدْ أَعْطَيْتُهُ مِئَةَ دينارٍ لِيَدْفَعَ مَصاريفَ الدَّفْنِ.

فَصاحَتْ شَمْسُ النَّهارِ:

- مُسْتَحيلٌ! لَقَدْ جاءَتْ فاطِمَة، هٰذا الصَّباحَ، تُخْبِرُني أَنَّ زَوْجَها ماتَ. وَلِذا أَعْطَيْتُها، أَنا أَيْضًا، مِئَةَ دينارٍ لِتَدْفَعَ مَصاريفَ الدَّفْنِ.

سَكَتَ الْخَليفَةُ وَزَوْجَتُهُ، وَراحا يَنْظُرانِ إلى بَعْضِهِما بِٱسْتِغْرابٍ. وَبَعْدَ قَليلٍ، قالَتْ شَمْسُ النَّهارِ لِزَوْجِها:

- مَوْلايَ، يَبْدو أَنَّ هُناكَ أَمْرًا غامِضًا في هٰذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

- أَجَلْ... أَجَلْ... هٰذا ما كُنْتُ عَلى وَشْكِ أَنْ أَقولَهُ لَكِ. لِنَذْهَبْ مَعًا إلى كوخِ جُحا، وَهُناكَ نَتَحَقَّقُ مِمّا يَجْري.



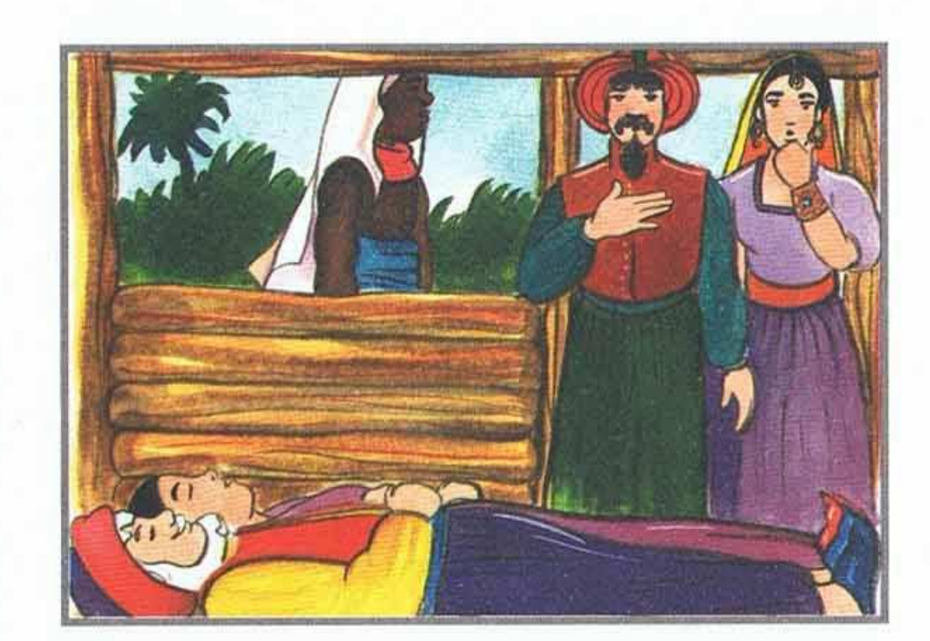


٤

في هٰذِهِ الْأَثْناءِ، كانَ جُحا يَتَأَمَّلُ الدَّنانيرَ الْمَوْضوعَةَ عَلى طاوِلَةٍ أَمامَهُ بِعَيْنَيْنِ يَمْلَأُهُما الطَّمَعُ، وَيَقولُ لِزَوْجَتِهِ:

- لَقَدْ نَجَحَتْ خُطَّتي تَمامًا. أُنْظُري هٰذا الذَّهَبَ عَلى الطّاوِلَةِ. لَمْ أَرَ كَمِّيَّةً كَبيرَةً كَهٰذِهِ طَوالَ حَياتي. إنَّنا غَنِيّانِ.. غَنِيّانِ..!

وَبَدَلًا مِنْ أَنْ تَفْرَحَ فاطِمَة مَعْ جُحا، أَخَذَتْ تَبْكي وَتَنوحُ. فَسَأَلَها زَوْجُها:



- وَلٰكِنْ.. ما بِكِ؟

- لا تَفْرَحْ كَثيرًا بِالدَّنانيرِ، إِذْ سُرْعانَ ما يَكْتَشِفُ الْخَليفَةُ فِعْلَتَكَ فَيَصُبُّ غَضَبَهُ عَلَيْنا، وَيُنْزِلُ بِنا أَشَدَّ الْعِقابِ.

في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ، أَبْصَرَ جُحا مِنَ النّافِذَةِ الْخَليفَةَ وَزَوْجَتَهُ مُتَّجِهانِ صَوْبَ الْكوخِ. وَكانَ يَتْبَعُهُما عَبْدٌ أَسْوَدُ ضَخْمٌ، يَحْمِلُ في وَسْطِهِ سَيْفًا كَبيرًا.

صاحَ جُحا:

- يا إِلٰهي! لَقَدْ قُضِيَ عَلَيْنا!

وَأَخَذَ يَرْتَجِفُ مِنَ الْخَوْفِ. فَنَظَرَتْ فاطِمَة مِنَ النّافِذَةِ، وَقالَتْ:

- كُنْتُ مُتَأَكِّدَةً أَنَّ حيلَتَكَ سَتُكْتَشَفُ سَريعًا. وَالْآنَ، ما الْعَمَلُ؟

فَقالَ جُحا:

- عِنْدي فِكْرَةٌ. سَنَتَمَدَّدُ عَلى الْأَرْضِ، أَنا وَأَنْتِ، لِنَبْدُوَ كَأَنَّنا مَيْتانِ...

وَلِلْحالِ، اْرْتَمى أَرْضًا وَتَمَدَّدَ. وَتَبِعَتْهُ زَوْجَتُهُ فَتَمَدَّدَتْ قُرْبَهُ. وَبَقِيا مِنْ دونِ أَيِّ حَرَكَةٍ كَأَنَّهُما ماتا.

لَمّا دَخَلَ الْخَليفَةُ الْكوخَ، جَمَدَ مَكانَهُ مِنَ الْمُفاجَأَةِ، وَصاحَ:

- يا إِلٰهي! اَلِاثْنانِ مَيْتانِ.. جُحا وَزَوْجَتُهُ!

وَلٰكِنَّهُ قالَ في نَفْسِهِ:

- مُسْتَحيلٌ! لا بُدَّ أَنَّ في الْأَمْرِ خَديعَةً ما. ها! لَقَدْ فَهِمْتُ الْآنَ. أَرادَ جُحا أَنْ يَنْتَقِمَ مِنّي بِسَبَبِ الرَّفْسَةِ، هٰذا الصَّباحَ. حَسَنًا.. سَنَرى الْآنَ يا جُحا، ما سَيَكونُ!

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى شَمْسِ النَّهارِ، وَقالَ لَها:

- اِقْتَرِبي، يا زَوْجَتي، لِنُصَلِّ مَعًا قُرْبَ هٰذَيْنِ الْعَزيزَيْنِ الْغالِيَيْنِ اللَّذَيْنِ فَقَدْناهُما. فَقَدْ كانا أَمينَيْنِ وَمُخْلِصَيْنِ مَعَنا.

وَمَعْ أَنَّ شَمْسَ النَّهارِ كانَتْ خائِفَةً مِنْ مَشْهَدِ جُحا وَزَوْجَتِهِ، إِلّا أَنَّها ٱقْتَرَبَتْ مَعْ زَوْجِها، وَراحا يَتْلُوانِ صَلاةً. وَلَمّا أَنْهَيا الصَّلاةَ، قالَ الْخَليفَةُ لِزَوْجَتِهِ:

– يا شَمْسَ النَّهارِ، هُناكَ أَمْرٌ يُحَيِّرُني في هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ. فَمِنَ الْمُسْتَحيلِ أَنْ يَكونَ جُحا وَزَوْجَتُهُ قَدْ ماتا في اللَّحْظَةِ نَفْسِها. أَنا مُسْتَعِدٌّ أَنْ أَدْفَعَ مِئَتَيْ دينارٍ لِلَّذي يُخْبِرُني مَنْ مِنْهُما ماتَ أَوَّلًا، قَبْلَ الثّاني.

عِنْدَ سَماعِ هٰذا الْعَرْضِ الْمُغْري، لَمْ يَسْتَطِعْ جُحا أَنْ يَتَمالَكَ نَفْسَهُ. فَهَبَّ جالِسًا، وَقالَ:

– أَنا، يا مَوْلايَ، مُتُّ قَبْلَ زَوْجَتي!

صَرَخَتْ شَمْسُ النَّهارِ مِنَ الْخَوْفِ لِرُؤْيَةِ جُحا - الَّذي ظَنَّتْهُ مَيْتًا - يَنْهَضُ. وَرَكَضَتْ صَوْبَ الْبابِ لِتَهْرُبَ. أَمّا هارون الرَّشيدُ، فَقَدِ ٱسْتَوْلى عَلَيْهِ الضَّحِكُ، وَراحَ يُقَهْقِهُ وَيُقَهْقِهُ مِنْ دونِ تَوَقُّفٍ. فَهَبَّتْ فاطِمَة بِدَوْرِها تَنْظُرُ بِخَوْفٍ إِلى الْخَليفَةِ. أَمّا جُحا، فَقَدْ غَطّى وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ.

وَأَخيرًا، تَوَقَّفَ الْخَليفَةُ عَنِ الضَّحِكِ، وَصاحَ بِجُحا:

– يا لَكَ مِنْ كاذِبٍ خَدّاعٍ! لَقَدْ كَشَفْتُ خِدْعَتَكَ.

كُنْتَ تُريدُ الاِحْتِيالَ عَلَيَّ، وَلٰكِنَّكَ الْآنَ سَتَدْفَعُ ثَمَنَ هٰذِهِ الْإِهانَةِ غالِيًا.

وَٱلْتَفَتَ الْخَليفَةُ إِلى الْعَبْدِ الَّذي مَعَهُ، وَناداهُ قائِلًا:

– مَنْصور! اِسْتَعِدَّ لِتَقْطَعَ رَأْسَ هٰذا الرَّجُلِ الْوَقِحِ!

سَحَبَ الْعَبْدُ السَّيْفَ، وَوَقَفَ وَراءَ جُحا مُسْتَعِدًّا لِتَنْفيذِ أَمْرِ الْخَليفَةِ. فَٱرْتَمى جُحا عَلى قَدَمَيِ الْخَليفَةِ، وَقالَ لَهُ:

– مَوْلايَ، لَقَدْ وَعَدْتَني أَلّا تُعاقِبَني إِذا ما تَجَرَّأْتُ يَوْمًا أَنْ أَجْعَلَكَ ضَحِيَّةَ أَحَدِ مَقالِبي.

فَصاحَ بِهِ الْخَليفَةُ:

– اُسْكُتْ أَيُّها الْخائِنُ! لَقَدْ سَمَحْتُ لَكَ بِمَزْحَةٍ صَغيرَةٍ، وَلٰكِنَّكَ أَسَأْتَ ٱسْتِغْلالَ ثِقَتي، وَأَرَدْتَ سَرِقَتي!

فَراحَ جُحا يَبْكي، وَيَقولُ:

– وَلٰكِنْ، مَوْلايَ، لا تَنْسَ أَنَّني جَعَلْتُكَ تَضْحَكُ كَثيرًا...

وَكانَ الْعَبْدُ قَدْ رَفَعَ سَيْفَهُ يَنْتَظِرُ إِشارَةً مِنَ الْخَليفَةِ لِيَقْطَعَ رَأْسَ جُحا. لٰكِنَّ الْخَليفَةَ ظَلَّ جامِدًا، لا يَتَحَرَّكُ. كانَ يَسْبَحُ في تَأَمُّلاتِهِ، دونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلى جُحا الَّذي كانَ يُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ

طَلَبًا لِلرَّحْمَةِ.

مَرَّتْ دَقائِقُ بَدَتْ لِجُحا طَويلَةً، كَأَنَّها مِئاتٌ مِنَ السَّنَواتِ. وَأَخيرًا، قالَ الْخَليفَةُ:

– حَسَنًا، لَقَدْ سامَحْتُكَ الْيَوْمَ. وَلٰكِنْ، إذا فَكَّرْتَ في الاِحْتِيالِ عَلَيَّ مَرَّةً أُخْرى، فَعَلَيْكَ أَنْ تُضْحِكَني أَكْثَرَ بِكَثيرٍ مِنَ الْيَوْمِ، وَإِلّا قَطَعْتُ رَأْسَكَ بِالْفِعْلِ...

عِنْدَ سَماعِهِ هٰذِهِ الْكَلِماتِ، تَبَخَّرَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْ جُحا، وَقَفَزَ واقِفًا عَلى رِجْلَيْهِ، وَقالَ لِلْخَليفَةِ:

– مَوْلايَ! لا تَنْسَ أَنَّكَ وَعَدْتَ بِإِعْطاءِ مِئَتَيْ دينارٍ لِلَّذي يُخْبِرُكَ مَنْ ماتَ أَوَّلًا. وَبِما أَنّي أَنا الَّذي أَخْبَرْتُكَ، أَرى أَنْ تَأْمُرَ لي بِالدَّنانيرِ...

فَأَجابَ الْخَليفَةُ ضاحِكًا:

– حَسَنًا.. حَسَنًا.. سَوْفَ تَحْصُلُ عَلَيْها، يا جُحا!



جحا وهارون الرشيد

حكايات من الشرق



